المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

صور مشرقة من تعظيم الله تعالى
عند السلف الصالح

اسم الباحث

أ.د/ حسن حميتو

أ. د. حسن حميتو

صور مشرقة من تعظيم الله تعالى

عند السّلف الصّالح

مقدمة

الحمد لله العليِّ العظيم، الجبار المتكبر ذي القوة المتين، أحمده تعالىٰ بالمحامد كلّها في كلّ وقت وحين، وأصلي وأسلِّم علىٰ سيِّد الخلق أجمعين، قدوة كلّ مؤمن مخبت في تعظيم ربِّ العالمين، القائل عن نفسه: «أَمَا -وَاللهِ- إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ»[1]، ورضي الله تعالىٰ عن صحبه الطَّيبين الطَّاهرين، وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين،،

وبعدُ؛ فغير خافٍ أنَّ من أجلِّ أعمال القلوب، وأزكاها عند علَّام الغيوب، تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- وخشيته، وإجلاله وتقديره حقَّ قدره، فهي أسمىٰ عبادات الباطن، وأزكىٰ ثمرات أعمال الظَّاهر؛ ومن لم يعظِّم الله حقَّ تعظيمه فلا اعتبار بإيمانه وتوحيده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله تعالىٰ، والرسالة لعبده ورسوله، ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام، الذي هو حال في القلب يظهر أثره علىٰ الجوارح، بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل، كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبا لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلا لما فيه من المنفعة والصلاح»[2].

وأكثر الخلق تعظيما للعظيم الجليل سبحانه، هم أعرف الناس به وبما ينبغي له -جل وعلا- من إجلال وتقدير وتعزير، إنهم صفوة الأصفياء، من المرسلين والأنبياء، ومن تبعهم بإحسان من الأولياء والعلماء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨].

قال الإمام ابن القيم في فصل منزلة التعظيم من كتاب (مدارج السالكين): «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ منزلة التعظيم، وهذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالىٰ في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيما وإجلالا، وقد ذم الله تعالىٰ من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته، وأقوالهم تدور علىٰ هذا، قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾[نوح]»[3].

ولا شكَّ أن أعظم أهل هذه الملة المحمدية تعظيمًا للعزيز الحميد، بعد نبيها محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هم أصحابه الأكرمون، الذين تربوا علىٰ يدي من خاطبه ربه بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٦).

(٢) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (٣/ ٧٠٠).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٤).

﴿أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾[الفتح]. ثم تلاميذهم من التابعين والسلف الصالحين، الذين شهد لهم بالخيرية خاتمُ المرسلين.

وإن المطلع علىٰ سير هؤلاء الأخيار في الكتب التي اهتمت بتسجيل أخبارهم، وذكر أحوالهم، وسرد أقوالهم، ليأخذه العجب وتتملكه الدهشة مما كان عليه أولئك الأتقياء الأبرار من كمال الإجلال وتمام التعظيم للرب الكريم تبارك وتعالىٰ، في اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، حتىٰ صار من جاء بعدهم كما وصفهم الإمام أبو عمرو بن العلاء المازني البصري (١٥٤هـ) شيخ القُرَّاء والنُّحاة بقوله: «ما نحن فيمن مضىٰ إلا كبقل في أصول نخل طوال»[(١)]. ورحم الله الإمام عبد الله بن المبارك -وهو من جملة تلك الكوكبة الطيبة المباركة- فقد كان إذا ذكر أحوال مَن سلف ينشد[(٢)]:

لا تَعْرِضَنَّ لِذكرنا في ذكرهم ... لَيس الصَّحيحُ إذا مشىٰ كالمُقْعَدِ

وهذا العرض وقفة عجلىٰ علىٰ مشاهد وصور من تعظيم الله تعالىٰ في حياة سلفنا الصالح من الصحب الأطهار الذين تربوا في مدرسة النبوة واقتبسوا من أنوارها، وتابعيهم الذين جاءوا من بعدهم وساروا علىٰ هديهم.

ولا شك أن مظاهر هذا التعظيم وصوره في حياة هؤلاء الكرام البررة كثيرة باهرة، مثلت عندهم سلوكا ثابتا، ومنهج حياة متكامل، ينطلق من اعتقاد راسخ وإيمان صادق.

وليس القصد من هذا العرض استقصاء غررها وإحصاء دررها، فذلك مما دونه خرط القتاد، وإنما المقصود منه تتبع صور وتجليات من تمثل السلف الصالح لهذا التعظيم؛ تكون لنا منارات للاهتداء ومثابات للتأسي والاقتداء، أجيب من خلالها عن سؤال البحث المحوري، وهو: كيف مارس السلف الصالح تعظيم الله تعالىٰ؟ وكيف حققوه ونزلوه في حياتهم؟

سالكًا في بيان ذلك منهجين أساسين، هما: المنهج الوصفي الذي يصف واقع تعظيم السلف الصالح لله تعالىٰ في الاعتقاد والسلوك والعمل، والمنهج التحليلي الذي يحلل منطلقاتهم في ذلك، ويربط صور تعظيمهم لله تعالىٰ بأصولها من نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) موضح أوهام الجمع والتفريق للخطيب البغدادي (١/ ١٢-١٣).

(٢) بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف لابن رجب الحنبلي (٨٧).

وقد جعلت هذا العرض مؤسَّسًا بعد هذه المقدمة علىٰ أربعة عناصر، تناولت كل عنصر منها في مبحث خاص وفق الخطة الآتية:

المحور الأول: تعظيم السلف لله تعالىٰ في العقيدة وأعمال القلوب والسلوك.

المحور الثاني: تعظيمهم لله تعالىٰ بالذكر والعبادة وأعمال الجوارح.

المحور الثالث: تعظيمهم لله تعالىٰ عند ورود الأمر والنهي.

المحور الرابع: تعظيمهم لله تعالىٰ بتعظيم شعائره وحدوده وحرماته وأوليائه.

وتتلو هذه المحاور خاتمة جامعة لنتائج وتوصيات هي خلاصة للعرض وامتداد له.

واللهَ أسأل أن يسلك بنا سبيل المهتدين، وينفعنا بمحبة الصالحين، ويلحقنا بزمرة الفائزين، ويهدينا لانتهاج طريقهم حتىٰ يجمعنا بهم في جنات النعيم، علىٰ سرر متقابلين، لا يمسنا فيها نصب وما نحن منها بمخرجين، آمين، والحمد لله رب العالمين.

المحور الأول: تعظيم السلف لله تعالى في العقيدة وأعمال القلوب والسلوك

أ- تعظيم الله بسلامة الاعتقاد

تعظيم الله تعالىٰ في أصله عمل قلبي وعبادة باطنية، تنطلق من عقيدة سليمة راسخة بانفراده سبحانه بالعظمة والعزة والكبرياء وصفات الجلال والكمال.

وأعظم ما تتأسس عليه تلك العقيدة العلم به وأنه الواحد الأحد المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال، ومن تلك الصفات العظمة والعزة والكبرياء، فهو أكبر وأجل وأعز من كل شيء، وفوق كل شيء، والقادر علىٰ كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الزُّمَر].

قال السُّدِّيُّ: ما عظَّموا الله حقَّ عظمته[1].

وفي (الصَّحيحين): من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا محمَّد، إنَّا نجد أن الله يجعل السَّموات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر الخلق علىٰ إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النَّبيُّ ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الزُّمَر: ٦٧][2].

وعن ابن عباس قال: «ما السَّموات السَّبع والأرضون السَّبع في كفِّ الرَّحمن، إلَّا كخردلة في يد أحدكم»[3].

إنّها عقيدة ترسخها في القلوب والنفوس والعقول شهادة الحقّ التي يتكرَّر رفعها علىٰ المنائر، ويتردد صداها في أرجاء الكون عند حلول وقت كلّ صلاة مكتوبة: «الله أكبر، الله أكبر»، أي: أعظم من كلّ شيء سواه يشغلك عن عبادته وذكره.

وهي العقيدة التى ذكَّر بها النَّبيُّ الكريمُ الصَّحابيَّ الجليلَ عدي بن حاتم حين جاءه مهاجرًا، فقال له: «**إنَّما تفرُّ أن تقول: الله أكبر، وتعلم أنَّ شيئًا أكبر من الله؟**»، قال: قلتُ: لا[4].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٥٣٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٠ / ٢٤٦).

(٤) أخرجه التّرمذيّ (٢٩٥٣).

وللسَّلف في تعظيم الله في باب الاعتقاد ما فيه عبرة للمعتبرين، تراهم إذا ذُكِّروا بالله لم يعدله في قلوبهم شيء، فيتركون محابهم وأهواء أنفسهم ونوازع طباعهم طلبًا لمرضاة ربهم، وهذا هو فصل ما بين عباد الله المتقين وبين إخوان الشياطين، الأولون يؤثرون رضا الرَّحمن محبة وتعظيمًا، والآخرون الأرذلون يستغويهم الشيطان فيزيدهم جهلًا وعتوًّا وعمًى، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[الأعراف].

هذا أبو مسعود البدريُّ يحكي عن نفسه، فيقول: كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسَّوط، فسمعتُ صوتًا من خلفي: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، فلم أفهم الصَّوت من الغضب، قال: فلما دنا منِّي إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قال: فألقيتُ السَّوط من يدي، فقال: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلَامِ»، قال: فقلتُ: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

وفي رواية عند (مسلم) أيضًا: قال: فقلتُ: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله، فقال ﷺ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ»، أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[(١)].

ويصف عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أباه عمر بن الخطاب فيقول: «ما رأيتُ عمرَ غضب قطُّ، فذُكِرَ اللهُ عنده أو خُوِّفَ أو قرأ عنده إنسانٌ آيةً من القرآن إلَّا وقف عمَّا كان يريد»[(٢)].

وهو ما يؤكده أسلم مولاه؛ إذ يقول: صاحَ عمرُ يومًا، وعلاني بالدِّرَّة، فقلتُ: أُذكِّرك اللهَ، فطرحها[(٣)].

ووصف إبراهيمُ بن الأشعث الفُضَيلَ بن عياض، فقال: ما رأيتُ أحدًا كان الله في صدره أعظمَ من الفُضَيل، كان إذا ذكر الله أو ذُكِر عنده أو سمع القرآنَ ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكىٰ حتىٰ يرحمه من بحضرته، وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيتُ رجلًا يريد اللهَ بعلمه وأخذه وإعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبِّه وخصاله كلها= غيرَه[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩).
(٢) الطبقات (٣/ ٣٠٩).
(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٠٩).
(٤) حلية الأولياء (٨/ ٨٤).

ومن لوازم هذا التَّعظيم عند السَّلف إثبات صفات الكمال والجلال له سبحانه، واعتقاد تنزيهه تعالىٰ عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته من النقائص ومشابهة المخلوقين، اعتصاما بكتاب الله الذي ذم من لم ينزه الله تعالىٰ عن النقائص وصفات المخلوقين، فقال فيمن نسب إليه الصاحبة والولد: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾[مريم].

لذا؛ كان سلف الأمة قدوة الموحدين في إثبات صفات الكمال لله تعالىٰ، وتنزيهه -جل وعلا- عما نسبه إليه الملحدون والمشبهة من صفات النقص والعجز، وما عطله منه المعطلون أتباع الفرق الضالة من صفات الكمال والجلال الثابتة له في محكم كتابه وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فهذا الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ حين سأله أحدهم عن قوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه]، ظهر منه ما يدل علىٰ شدة تعظيمه لله تعالىٰ وتنزيهه له عن معتقد المشبهة والمعطلة، فقد روىٰ الحافظ أبو نعيم في الحلية بسنده إلىٰ جعفر بن عبد الله قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ كيف استوىٰ؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، منظر في الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتىٰ علاه الرُّحَضاء، يعني العرق، ثمّ رفع رأسه ورمىٰ بالعود، وقال: «الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وأمر به فأُخرج[1].

وقريب من هذا ما روي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فيما رواه عنه ابنه عبد الله، قال: كنتُ أنا وأبي عابرين في المسجد، فسمع قاصًّا يقصُّ في حديث النُّزول، فقال: إذا كان ليلة النِّصف من شعبان، ينزل الله -عزَّ وجلَّ- إلىٰ سماء الدُّنيا، بلا زوال ولا انتقال ولا تغيّر حال. فارتعد أبي رَحِمَهُ اللَّهُ واصفرَّ لونُه، ولزم يدي، فأمسكتُه حتىٰ سكن، ثم قال: قِفْ بنا علىٰ هذا المتخرِّص، فلمَّا حاذاه، قال: يا هذا، رسول الله ﷺ أغيرُ علىٰ ربِّه منك، قل كما قال رسول الله ﷺ، وانصَرَف[2].

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٢) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات (٦٢-٦٣).

ورأىٰ الإمام أحمد رجلًا يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزُّمَر: ٦٧] ويشير بيده، فقال له الإمام أحمد: «قطعها الله، قطعها الله، قطعها الله»، ثمّ حَرِد -أي: غضب- وقام[١].

وفي (تاريخ دمشق): أنَّ هشام بن عمَّار بلغه أنَّ أناسًا ينسبونه إلىٰ اللفظية[٢]، فغضب وخطب خطبة اثنىٰ فيها علىٰ الله تعالىٰ ووصفه بالآيات السِّتِّ من أوَّل الحديد[٣]، وتلاها علىٰ الحاضرين، وذكَّر من عظمة الله ما عجب منه السَّامعون من حُسنه، ثمّ ذكر القرآن، فقال: القرآن كلام الله، وليس بمخلوق، ومن قال: القرآن أو قدرة الله أو عِزَّة الله مخلوقة؛ فهو من الكافرين[٤].

ومن هذا الباب: ما روي في قصة وضع الإمام أبي الأسود الدؤلي لعلم نقط المصاحف، ففي كتاب (المحكم في نقط المصاحف) لأبي عمرو الدَّاني بسنده إلىٰ محمد بن عبيد الله العُتبيِّ، قال: كتب معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ زياد[٥] يطلب عبيد الله ابنه[٦]، فلمّا قدم عليه كلَّمه، فوجده يلحنُ، فردَّه إلىٰ زياد، وكتب إليه كتابًا يلومه فيه، ويقول له: أمثل عبيد الله يُضَيَّع؟ فبعث زيادٌ إلىٰ أبي الأسود الدُّؤلي، فقال: يا أبا الأسود، إنَّ هذه الحمراء[٧] قد كثرت، وأفسدت من ألْسُن العرب، فلو وضعتَ شيئًا يُصلح النَّاسُ به كلامَهم، ويعربون به كتابَ الله تعالىٰ. فأبىٰ ذلك أبو الأسود، وكره إجابةَ زيادٍ إلىٰ ما سأل، فوجَّه زيادٌ رجلًا، فقال له: اقعد في طريق أبي الأسود، فإذا مرَّ بك فاقرأ شيئًا من القرآن، وتعمَّدِ اللَّحنَ فيه، ففعل ذلك، فلمَّا مرَّ به أبو الأسود رفع الرَّجلُ صوتَه، فقال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/ ٣٥٤).

(٢) وهم الذين يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق.

(٣) ينظر: سورة الحديد من قوله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

(٤) تاريخ دمشق (١٨/ ٢٥٥).

(٥) هو: زياد بن أبيه، استلحقه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأبيه، وولي له العراقَ، توفي سنة ٥٣هـ. ترجمته في (طبقات ابن سعد ٧/ ٩٩).

(٦) هو: عبيد الله بن زياد بن أبيه، والٍ فاتح من الشُّجعان، ولي العراق ليزيد بن معاوية، وكانت الفاجعة بمقتل الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في زمانه. وقتل عبيد الله علىٰ يدي ابن الأشتر سنة ٦٦هـ. ينظر: تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٨، ٢٦٣).

(٧) الحمراء: العجم؛ لبياضهم، ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم (لسان العرب ٤/ ٢١٠: حمر).

﴿ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة: ٣][(١)]. فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال: عَزَّ وجه الله أن يتبرأ من رسوله. ثم رجع من فوره إلىٰ زياد، فقال: يا هذا، قد أجبتُك إلىٰ ما سألت، ورأيتُ أن أبدأ بإعراب القرآن، فابعث إليَّ ثلاثين رجلًا. فأحضرهم زياد. فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختار، حتىٰ اختار رجلًا من عبد قيس، إلىٰ آخر القصة التي أفضت لوضع علم نقط المصاحف[(٢)].

ب - تعظيم الله تعالى بتنزيه أسمائه وصون كلامه

ومن لوازم هذا التعظيم القلبي لله تعالىٰ عند السلف الكرام، تنزيههم اسمه تعالىٰ عن أن يذكر في غير مقامات الإجلال والتفخيم، كأن يقرن بما لا يليق بجلاله وعظمته، أو يُعرَّض بذلك، ولو في مواطن الهزل والدعابة. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «ليعظم جلالُ الله أن تذكروه عند الحمار والكلب، فيقول أحدكم لكلبه أو لشاته: أخزاك الله، وفعل الله بك»[(٣)].

وقال عون بن عبد الله: «ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء، حتىٰ يقول: أخزىٰ الله الكلب، وفعل الله به كذا»[(٤)].

ومن لوازم تعظيم الله تعالىٰ عند السَّلف: إكرام أسمائه الحسنىٰ، وتعظيم كلامه وصيانته وحفظ ما فيه كلامه من المصاحف والألواح ونحوها عمَّا لا يليق بها.

قال سعيد بن أبي سُكَينة: بلغني أنَّ عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نظر إلىٰ رجل يكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فقال له: جوِّدها، فإنَّ رجلًا جودَّها فغفر له، قال سعيد: وبلغني أنَّ رجلًا نظر إلىٰ قرطاس فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقبَّله ووضعه علىٰ عينيه، فغفر له»[(٥)].

---

(١) قرأ الرَّجل ﴿ورسوله﴾ بالجَرِّ متعمدًا ليغير المعنىٰ، ليستحثّ بذلك أبا الأسود علىٰ إجابة طلب زيادة إلىٰ وضع شيء يمنع النَّاس من اللَّحن في كتاب الله تعالىٰ.

(٢) المحكم (٣-٤). وتنظر هذه الرِّواية أيضا في (إيضاح الوقف والابتداء) لابن الأنباري (١/ ١٦-١٧)، والبيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٢٣٦)، وإنباه الرُّواة (١/ ٣٩-٤٠) والأخبار المروية في سبب وضع العربية للسُّيوطي (٣٦ – ٣٩).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٢٠٩).

(٤) الشفا في التعريف بحقوق المصطفىٰ للقاضي عياض (٢/ ٣٠١).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي (٢٦٦٧)، وتفسير القرطبي (١/ ١٤٢)، وفي الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع للخطيب: عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «تنوَّق رجل في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فغفر له».

وكان عكرمة بن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأخذ المصحف ويضعه علىٰ وجهه، ويبكي، ويقول: «كتاب ربّي، كتاب ربّي»[١].

قال القاضى عياض: وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قلَّما يذكر اسم الله تعالىٰ إلَّا فيما يتَّصل بطاعته، وكان يقول للإنسان: جُزيتَ خيرًا، وقلَّما يقول: جزاك الله خيرًا، إعظامًا لاسمه تعالىٰ أن يُمتهن في غير قُربة. وحدَّثنا الثِّقة أنَّ: الإمام أبا بكر الشَّاشى كان يعيبُ علىٰ أهل الكلام كثرةَ خوضهم فيه تعالىٰ وفىٰ ذكر صفاته إجلالًا لاسمه تعالىٰ، يقول: هؤلاء يتمندلون[٢] بالله عزَّ وجلَّ[٣].

ومن قصصهم المدهشة في صيانة أسماء الله الحسنىٰ وحفظ كلامه من أن يمتهن أو يبتذل، ما حكاه محمَّد بن الصَّلت عن بشر بن الحارث (الحافي) أنَّه سُئل: ما بال اسمك بين النَّاس كأنَّه اسم نبي؟ قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم، كنتُ رجلًا عيَّارًا صاحب عصابة، فجزتُ يومًا فإذا أنا بقرطاس في الطَّريق، فرفعتُه فإذا فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فمسحته، وجعلته في جيبي، وكان عندي درهمان ما كنتُ أملك غيرهما، فذهبتُ إلىٰ العطَّارين فاشتريتُ بهما غالية طِيبًا، ومسحته في القرطاس، فنمت في تلك الليلة، فرأيتُ في المنام كأنَّ قائلًا يقول لي: يا بشر بن الحارث، رفعتَ اسمنا عن الطَّريق وطيبته، لأطيبنَّ اسمك في الدُّنيا والآخرة، ثمّ كان ما كان[٤].

وقصة توبة بشر الحافي هذه، أخرجها أيضًا ابن عساكر في (تاريخ دمشق) بسياق آخر، عن عمر بن عبد الله الواعظ، قال: «كان بشر الحافي شاطرًا -أي: لصًّا- يجرح بالحديد، وكان سبب توبته أنَّه وجد قِرطاسًا في أتون حمَّام فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فعظُم ذلك عليه، ورفع طرفه إلىٰ السَّماء، وقال: سيدي، اسمك هاهنا ملقًىٰ. فرفعه من الأرض، وقلع عنه الشّجاة التي هو فيها، وأتىٰ عطَّارًا فاشترىٰ بدرهم غاليةً لم يكن معه سواه، ولطَّخ تلك الشَّجاة بالغالية، فأدخله شِقَّ حائط، وانصرف إلىٰ زجَّاج وكان يجالسه، فقال له الزَّجَّاج: والله يا أخي، لقد رأيتُ لك في هذه الليلة رؤيا ما رأيتُ أحسنَ منها، ولستُ أقول لك حتىٰ

---

(١) سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن حديث(٣٢٢٨) (٢/ ٤٤٠)، وشعب الإيمان (٢٢٢٩)، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص١٩١.

(٢) أي: يجعلونه كالمنديل، تعالىٰ جد ربنا وتقدس.

(٣) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٣٠١).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ٣٣٦) وكتاب التوابين لابن قدامة ص١٢٨.

تحدِّثني ما فعلتَ في هذه الأيام فيما بينك وبين الله، فقال: ما فعلتُ شيئًا أعلمه غير أنِّي جزتُ اليوم بأتون حمَّام .. فذكره، فقال الزَّجَّاج: رأيتُ كأنَّ قائلًا يقول في المنام: قل لبشر: يرفع اسمًا لنا من الأرض إجلالًا أن يُداس، لنُنَوِّهَنَّ باسمك في الدُّنيا والآخرة. وفي رواية أخرىٰ أنَّه قال له: يا بشر، كما طيَّبت اسمي لأُطيِّبَنَّ ذِكرك، وكما طهَّرته لأطهِّرنَّ قلبك[١].

ومن القصص المشهورة عن مالك بن دينار ممّا يدخل في هذه البابة: أنَّه خرج لصلاة العشاء، فإذا برجل مخمور سكران يقول: «الله، الله»، والخمر ينسكب من فمه، فأخذ مالك ثوبًا وجعل ينظف فمَه من الخمر تعظيمًا وغيرةً علىٰ اسم الله أن يجري علىٰ لسان وفم نجسين، ثمّ دعا للرَّجل أن يطهِّره الله من رجس الخمر، فلمَّا انصرف مالكٌ إلىٰ بيته رأىٰ فيما يرىٰ النَّائم مَن يقول له: طهَّرت فمَه من أجلنا، فطهَّرنا قلبَه من أجلك، فلما غدا للمسجد في صلاة الصُّبح، وجده في الصَّفِّ الأوَّل من المسجد، وقد تاب لله تعالىٰ.

ومن تلك المقامات التي كانوا يعظِّمون الله تعالىٰ فيها: مقام الحلف واليمين، فيصونون اسمه -عزَّ وجلَّ- أن يجعلوه عرضةً لأيمانهم بالحلف به في سفاسف الأمور، ثمّ إذا حلفوا به لا يحلفون إلَّا عند الضَّرورة وهم صادقون، امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾[البقرة]، وقوله: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾[المائدة: ٨٩].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا -يعني الصَّحابة الكرام- نَعُد من الذَّنب الذي ليس له كفَّارة اليمين الغموس»[٢].

ومن كلام عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الزَّجر عن اليمين قوله: «إنَّما اليمين مأثمة أو مندمة»[٣].

وكان الأشعث بن قيس الكِنديّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاملًا لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ أذربيجان، فحلف مرَّة علىٰ شيء، فكفَّر عن يمينه بخمسة عشر ألفًا.

وروىٰ الشَّعبيُّ عنه: أنَّه حلف علىٰ يمين، ثمّ قال: «قبَّحك الله من مال! أما والله ما حلفتُ إلَّا علىٰ حقٍّ، لكنَّه ردٌّ علىٰ صاحبه»، وكان ثلاثين ألفًا[٤].

---

(١) تاريخ دمشق (١٠/ ١٨٢)، وصفة الصفوة (١/ ٤٨٢-٤٨٣).
(٢) مستدرك الحاكم (٤/ ٣٢٩).
(٣) المستدرك (٤/ ٣٣٧).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١).

وهذا الإمام الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول عن نفسه: «ما حلفتُ بالله صادقًا ولا كاذبًا»(١).

ومثله في تعظيم أمر اليمين بالله أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد رُوي أنَّه جعل علىٰ نفسه إن حلف بالله صادقًا أن يتصدق بدينار(٢).

جـ- تعظيم الله تعالى بالخوف والخشية

إن هذا التعظيم الراسخ للرَّبِّ -تبارك وتعالىٰ- في قلوب السلف، اقترن أيضا به الخوف منه، وهو ما أوصلهم إلىٰ ما يسمىٰ في لسان الشرع بمقام الخشية، قال الرَّاغب الأصفهاني: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشىٰ منه، ولذلك خصّ العلماء بها»(٣).

وقريب من معناها الوجل والرهبة، قال ابن القيم: «والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة. والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة، فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين»(٤).

والخشية من أزكىٰ وأشرف أعمال القلوب، التي جاءت الدعوة إليها والثناء علىٰ أهلها كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالىٰ في مدح أهلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[المؤمنون]، وقال سبحانه: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾[ق]، وقال في الدعوة إليها: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة: ٤٤]، وقال عزَّ من قائل: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٣].

وقد كان سلفنا الصَّالح أعظم النَّاس خشيةً لله تعالىٰ، وأكملهم شفقةً ووجلًا منه؛ لكمال تعظيمهم له، ورسوخ معرفتهم به، وقوَّة إيمانهم وكمال تقواهم، ومن يطَّلع علىٰ أحوالهم يرىٰ من شواهد ذلك ما تعجز عن وصفه الألسنة والأقلام، هذا أبو بكر الصِّديق كان يقول

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٤٦).
(٢) المصدر نفسه (٦/ :٤٠٠).
(٣) مفردات الراغب (٢٨٣).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٥٠٧-٥٠٨).

من خشية الله وشفقة لقائه: «وددت أنِّي شعرةً في جنب عبد مؤمن»، ويقول: «وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ تُؤْكَلُ وَتُعْضَدُ»(١).

ونظيره في هذه الخشية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي نقل عنه أنه أخذ تبنة فقال: «يا ليتني مثل هذه التبنة، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئا، ليتني كنت نسيا منسيا»(٢). يقول أنس بن مالك: «خرجت مع عمر بن الخطاب حتىٰ دخل حائطا، فسمعته يقول وبيني وبينه الجدار، وهو في جوف الحائط: أعمر أمير المؤمنين؟ بخ بخ، والله يا بنيَّ الخطاب لتتقينَّ الله أو ليعذبنك»(٣).

وكان سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ نسيج وحده في خشية الله والخوف منه، حتىٰ قال عن نفسه: «خفت الله خوفا عجبتُ لي كيف ما متُّ، إلا أن لي أجلا أنا بالغه». ورُوي أن ماءَه حُمِل إلىٰ طبيب في علته، فلما نظر قال: هذا ماء رجل قد أحرق الخوف جوفه. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم من خشية الله(٤).

لقد بلغت خشية الله وتعظيمه ببعض هؤلاء الأواهين المخبتين إلىٰ مفارقة الحياة لشدة الوارد من ذلك علىٰ قلوبهم وضعف هذه القلوب عن احتماله، وقد جمع من ذلك الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت٤٢٧هـ)(٥) قصصًا طريفة في كتابه (قتلىٰ القرآن)(٦)، ومهَّد لها صدرَ الكتاب بقوله: «وليعلم النَّاظر فيه أنَّ لله تعالىٰ عبادًا اصطفاهم علىٰ خلقه، واختصهم بفضله، وهنَّأهم بنوره، فقتلهم بسيفه، وأماتهم بخوفه، وأهَّلهم للشَّهادة العظمىٰ، فهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، فكن أيها النَّاظر في كتابنا هذا من متبعيهم بالإحسان، ومحبيهم بالقلب واللِّسان، تكن معهم في الجنان، إن شاء الله تعالىٰ»(٧).

---

(١) الزُّهد للإمام أحمد (زهد أبي بكر: ٩٠، ٩٣).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٦٠) والمصنف لابن أبي شيبة (٧/ ٩٨).

(٣) الموطأ (١٨٠٥)، والطبقات لابن سعد (٣/ ٢٩٢).

(٤) ورد هذا عنه في (شعب الإيمان ١/ ٥٣٥) فما بعدها، والحلية (٧/ ٢٣).

(٥) هو: الإمام المقرئ المفسِّر الواعظ الأستاذ، صاحب الكشف والبيان، توفي سنة ٤٢٧هـ. ترجمته في إنباه الرواة (١/ ١٥٤) ومعجم الأدباء (٢/ ٥٠٧) ووفيات الأعيان (١/ ٧٩) وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٣٥) وغاية النهاية (١/ ١٠٠).

(٦) الكتاب مطبوع في جزءٍ، طبعته مكتبة العبيكان-الرياض، بتحقيق د. ناصر بن محمد المنيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(٧) قتلىٰ القرآن (٥٦).

وساق من تلك القصص الدَّالَّة علىٰ ما انعقدت عليه قلوب أولئك الأخيار من الخوف والرَّهبة والتَّعظيم لله تعالىٰ: قصّة موت عليّ بن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فساق بسنده إلىٰ يعقوب بن يوسف الدّشتكي وكان ملازمًا للفضيل بن عياض، قال: كان الفضيل بن عياض إذا علم أنَّ ابنه عليًا ليس خلفَه تتوَّق في القرآن، وحزَّن وخوَّف، وإذا علم أنَّه خلفه مَرَّ ولم يقف، ولم يُخوِّف. وظنَّ يومًا أنَّه ليس خلفه، فأتىٰ علىٰ ذكر هذه الآية: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾[المؤمنون]، قال: فخَرَّ عليٌّ مغشيًا عليه، فلمَّا علم أنَّه خلفه، وأنَّه قد سقط، تجوَّز في القراءة، فذهبوا إلىٰ أمِّه، فقالوا: أدركيه، فجاءت فرشَّت عليه ماء، فأفاق، فقالت لفضيل: أنت قاتلُ هذا الغلام عليَّ، فمكث ما شاء الله، فظنَّ أنَّه ليس خلفه، فقرأ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[الزُّمَر: ٤٧]، فخَرَّ ميِّتًا، وتجوَّز أبوه في القراءة، وأُتيتُ أمَّه، فقيل لها: أدركيه، فجاءت، فرشَّت عليه ماءً، فإذا هو ميِّتٌ[١].

وقد ساق من هذا القبيل أيضًا الإمام البيهقيُّ قصصًا في كتاب (شعب الإيمان)[٢].

وناهيك بها خشية توصل صاحبها إلىٰ مفارق الحياة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله وعظمته وجماله أمورًا عظيمة، تصادف قلوبًا رقيقة فتحدث غشيًا وإغماءً، ومنها ما يوجب الموت»[٣].

د. تعظيم الله تعالى بالغضب له والحمية لحرماته

كما كان من تجليات تعظيمهم لله تعالىٰ الغضب له ولدينه والغيرة علىٰ حرماته، فلا يرضون أن يسمعوا من أحد كائنا من كان ما ينافي تعظيم الله وتوقيره، أو ما يمس الجناب الإلهى بأذىٰ أو تنقص، فلا يقوم لغضبهم شيء. قال القاضى عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل وأما من تكلم من سقط القول وسخف اللفظ ممن لم يضبط كلامه وأهمل لسانه بما يقتضىٰ الاستخفاف بعظمة ربه وجلالة مولاه أو تمثل في بعض الأشياء ببعض ما عظم الله من ملكوته أو نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلَّا في حق خالقه غير قاصد للكفر والاستخفاف ولا عامد للإلحاد، فإن تكرَّر هذا منه وعرف به دلَّ علىٰ تلاعبه بدينه واستخفافه بحرمة ربِّه وجهله بعظيم عِزَّته وكبريائه، وهذا كفر لا مرية فيه، وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتّنقص لربِّه»[٤].

---

(١) المصدر نفسه (٦٢).

(٢) شعب الإيمان (١/ ٥٣٢) فما بعدها.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٧).

(٤) الشفا في التعريف بحقوق المصطفىٰ (٢/ ٢٩٩).

وكان عمر من أشدِّ النَّاس غضبًا لله ولحرماته علىٰ مَن ينتهكها، وكان يقول: «لقد لان قلبي في الله حتىٰ لهو ألين من الزّبد، ولقد اشتد قلبي في الله حتىٰ لهو أشدّ من الحجر»[١].

ومن مواقفهم في الغضب لله ما رُوي: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذمِّي تناول من حرمة الله تعالىٰ غير ما هو عليه من دينه وحاجّ فيه، فخرج ابن عمر عليه بالسَّيف فطلبه فهرب[٢].

وروىٰ هشام بن عروة، عن أبيه عُروة بن الزَّبير، قال: جاءنا سائلٌ فسأل بوجه الله، قال: فقام الزُّبير فعلاه بالدِّرَّة، وقال: أبوجه الله تسأل؟ ألا سألت بوجه الخلق؟[٣].

ولعلَّ من روائع المواقف في الغضب لله تعالىٰ تعظيمًا له وإجلالًا: قصة القاضي الأندلسي عبد الملك بن حبيب السلمى الأندلسى المالكى (٢٣٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ذكرها القاضى عياض في شفائه فقال: وقد أفتىٰ ابن حبيب وأصبغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بـ (ابن أخى عجب)، وكان خرج يومًا فأخذه المطر، فقال: بدأ الخراز يرش جلوده، وكان بعض الفقهاء بها -قرطبة- أبو زيد صاحب الثَّمانية وعبد الأعلىٰ بن وهب وأبان بن عيسىٰ قد توقَّفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلىٰ أنَّه عبثٌ من القول يكفى فيه الأدب، وأفتىٰ بمثله القاضى حينئذ موسىٰ بن زياد، فقال ابن حبيب: دمُه في عنقى، أيُشتم ربُّ عبدناه، ثمّ لا ننتصر له؟ إنَّا إذًا لعبيد سُوء، ما نحن له بعابدين، وبكىٰ، ورُفع المجلسُ إلىٰ الأمير بها عبد الرحمن بن الحكم الأمويّ، وكانت عجب عمَّة هذا المطلوب من حظاياه، وأُعلم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه، وأمر بقتله فقُتِل وصُلِب بحضرة الفَقيهين، وعَزَل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القِصَّة، ووَبَّخ بقيةَ الفقهاء وسبَّهم»[٤].

هـ- تعظيم الله تعالى بالحياء منه

ومن عظيم ما تميز به السلف ممَّا هو من لوازم تعظيم الله: الحياء منه سبحانه الذي يحملهم علىٰ ترك المعاصي، بل وترك بعض المباحات، قال الجرَّاح بن عبد الله الحكمي: «تركتُ الذُّنوبَ حياءً أربعين سنة، ثمّ أدركني الورع»[٥].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٥٠).

(٢) الشفا (٢/ ٢٩٥).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ٢٣١).

(٤) الشفا في التعريف بحقوق المصطفىٰ (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٠).

ورُوي عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه كان يقول: «إنِّي لأغتسل في البيت المظلم، فأحني ظهري حياءً من ربِّي»(١).

ورُوي عن ابن عبَّاس أنَّه لم يكن يدخل الحمَّام إلَّا وحده، وعليه ثوبٌ صفيقٌ، يقول: إنِّي أستحيي من الله أن يراني في الحمَّام متجرِّدًا(٢).

ومكث عبد العزيز بن أبي رَوَّاد أربعين سنةً لا يرفع طرفَه للسَّماء حياءً من الله.

ورُوي مثلُ ذلك عن جماعةٍ، منهم: سلم بن سالم البلخي الزَّاهد(٣)، وإبراهيم التَّيميّ، وعطاء السُّلميّ: أنّهم مكثوا أربعين سنة لا يُشخِصون بأبصارهم إلىٰ السَّماء تخشُّعًا(٤).

وكان هشام بن عمَّار إذا مشىٰ أطرق إلىٰ الارض لا يرفع رأسَه إلىٰ السَّماء حياءً من الله عزَّ وجلَّ(٥).

وكان عامر بن عبد الله يغزو، فيقال له: إنَّ هذه الأجمة نخاف عليك فيها الأسد، فيقول: إنِّي لأستحيي من ربِّي أن أخشىٰ غيرَه(٦).

وسئل عطاء بن أبي رباح مفتي مكّة المكرمة عن شيءٍ، فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إنِّي أستحيي من الله أن يُدان في الأرض برأيي(٧).

وقصصهم في هذا الباب كثيرة عجيبة.

٩- تعظيم الله تعالى بالذل له والتواضع لخلقه

ومن أخلاق السَّلف الصَّالحين الدَّالَّة علىٰ عظم تعظيمهم لربِّ العالمين: الذُّلّ لله تعالىٰ والمسكنة له، والتَّبَرؤ من الكِبر والتَّجبر، والتَّواضع للخلق، حتَّىٰ لا يشاركوا الله تعالىٰ في صفتين لا تنبغيان إلَّا له تبارك وتعالىٰ، وهما صفتا العظمة والكبرياء، ففي الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما، ألقيته في جهنم**»(٨).

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ١١٣-١١٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠١).
(٢) السير (٣/ ٣٥٣).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، (ترجمة: ٤٩٥٦، ٥/ ٢٤٣).
(٤) فتح الباري (١١/ ٥٠٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٣٠).
(٦) شعب الإيمان (٩٦٦).
(٧) تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٢).
(٨) أخرجه ابن ماجه (٤١٧٤)، وصححه الألباني.

يقول أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثلاثة أحبُّهن، ويكرههن النَّاس: الفقر، والمرض، والموت. أحبُّ الفقرَ تواضعًا لربِّي، والموت اشتياقًا لربِّي، والمرض تكفيرًا لخطيئتي[١].

وكان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل الحُزمة من الحطب علىٰ ظهره إلىٰ السُّوق وهو أمير، ويقول: طَرِّقوا للأمير، طَرِّقوا للأمير[٢].

ومن تواضع سالم بن عبد الله بن عمر: أنَّه كان لا يركب إلَّا حمارًا عتيقًا زَرِيًّا، فعمد أولاده فقطعوا ذنبَه حتىٰ يدع ركوبه، فركبه وهو أقطع الذَّنب، فعمدوا فقطعوا أذنه، فركبه ولم يغيّره ذلك، ثمّ جدعوا أذنه الأخرىٰ، وهو مع ذلك يركبه تواضعًا واطِّراحًا للتَّكلُّف[٣].

وكان الإمام مالك لا يركب دابَّة في المدينة تواضعًا، ويقول: إنِّي أستحيي من الله أن أطأ تربة نبي الله بحافر دابّة[٤].

وكان الأوزاعيُّ من أشدِّ النَّاس تواضعًا، يقول عنه أبو إسحاق الفزاريُّ: «ما رأيتُ أحدًا كان أشدّ تواضعًا من الأوزاعيِّ، ولا أرحم بالنَّاس منه، وإن كان الرَّجل لينادیه، فيقول: لبيكَ.

وحكىٰ ابنه محمَّد أنَّه سمع أباه يقول: ما من أحد يُشاور مَن هو دونه في العلم والرَّأي والعقل تواضعًا لله واستكانةً، إلَّا عزم الله له بأرشد أموره.

قال محمّدٌ ابن الأوزاعي: فلقد رأيتُ أبي وهو يشاور الخادم[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٢) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٩).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (٦٧/ ٣٧٣). ومعنىٰ: (طرِّقوا) أي: اِفْسَحُوا له في الطّريق.

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٤).

(٤) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢/ ٥٣).

(٥) تاريخ مدينة دمشق (٣٥/ ١٧١-١٧٢)، (٥٤/ ٩٥).

المحور الثاني: تعظيمهم لله تعالى بالذكر والعبادة وأعمال الجوارح

وهذا المنحىٰ في تعظيم الله تعالىٰ متّرتب علىٰ الذي قبله، فمتىٰ ما استقر تعظيم الله في القلب عقيدة راسخة وعملا قلبيا تعبديا، انعكس ذلك علىٰ أعمال الجوارح وظهرت آثاره في العبادات والمعاملات واستقامة السلوك.

قال الإمام أبو بكر ابن العربيِّ في (أحكامه) عند قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحج]: «يريد في حالة التعظيم إذا كست العبد باطنا وظاهرا بصلاح السر وإخلاص النية، وذلك لأنّ التعظيم من أفعال القلب، وهو الأصل لتعظيم الجوارح بالأفعال»[1].

ومن تجليات ذلك:

أ- الخشوع في الصلاة

وهو أوضح ما يتجلَّىٰ فيه تعظيم الله تعالىٰ عند مناجاته والوقوف أمامه في الصَّلاة. والخشوع محله القلب، لكن ثمرته تظهر علىٰ الجوارح، كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العارفون علىٰ أن الخشوع محله القلب، وثمرته علىٰ الجوارح، وهي تُظهره»[2].

لذلك؛ كان من هدي السَّلف الصَّالح الإنكار علىٰ من يتكلَّف خشوع الظَّاهر، ويتصنع هيئة الخاشع مع خلو الباطن منه، وهو الذي سَمَّوه بخشوع النِّفاق. وكان حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: إيَّاكم وخشوع النِّفاق، فقيل له: وما خشوع النِّفاق؟ قال: أن ترىٰ الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع[3].

ورأت أمُّ الشِّفاء ابنة عبد الله فتيانًا يقصدون في المشي ويتكلَّمون رويدًا، فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان والله عمر بن الخطاب إذا تكلَّم أسمع، وإذا مشىٰ أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو النَّاسك حقًّا[4].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٢٨٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٧٠).

قال الفضيل بن عياض: «يكره أن يُري الرَّجل من الخشوع أكثر ممَّا في قلبه»[١].

هكذا كان خشوعهم عملًا قلبيًا باطنيًا يُثمر ثمارًا تدلّ عليه في الظَّاهر، فكانوا -كما ورد في وصفهم- رُهبانًا باللَيل فرسانًا بالنَّهار[٢].

ومن أمارات هذا الخشوع عندهم سكون الأعضاء وحضور القلب في الصَّلاة، وعدم الالتفات لشيء خارجها.

قال مجاهد بن جبر: «كان إذا قام أحدهم يصلِّي يهاب الرَّحمن أن يشدّ بصره شيء، أو أن يلتفت، أو يقلب الحصىٰ، أو يعبث بشيء، أو يحدِّث نفسَه من شأن الدُّنيا إلَّا ناسيًا، ما دام في صلاته»[٣].

هذا عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا قام في الصَّلاة كأنَّه عودٌ من الخشوع[٤].

قَالَ ثَابِتٌ البنَانِيُّ: كُنْتُ أَمُرُّ بِابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ خَلْفَ المَقَامِ يُصَلِّي كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ منصوبة لا تتحرك»[٥].

وكان ساجدًا أيام حصار الحجَّاج له بمكّة، فأتىٰ المنجنيق فأخذ بطائفة من ثوبه وهو في الصلاة خاشعٌ لا يتحرَّك.

وحكىٰ عُمَرَ بنِ قيْسٍ، عَنْ أُمِّهِ: أَنَّهَا دَخَلتْ عَلَىٰ ابْنِ الزُّبَيْرِ بيتَهُ، فَإِذَا هُوَ يُصَلِّي، فَسَقطَتْ حَيَّةٌ عَلَىٰ ابْنِهِ هَاشِمٍ، فَصَاحُوا: الحَيَّةَ الحَيَّةَ، ثُمَّ رَمَوْهَا، فَمَا قَطَعَ صَلاَتَهُ[٦].

وكان علىٰ نفس هذا الطراز الفريد من الخشوع في الصَّلاة: أخوه عروة بن الزُّبير رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد رُوي عنه أنَّه حين وقعت الأَكَلَة في رجله وبلغت ركبته، نصحه الأطباء بقطعها، ووصفوا له شرابًا يشربه يُذهب بعقله، حتىٰ لا يحسَّ بألم البتر، فامتنع من شربه، وقال لهم: إذا كنتُ في صلاتي فافعلوا بها ما شئتم، فقطعوا رجله وهو في الصَّلاة لا يحسّ بهم حتَّىٰ انتهوا من عملهم[٧].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢١).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٨).
(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (١/ ١٨٨).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٩١-١٩٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠٠).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٤٠١).
(٧) إحياء علوم الدين (١/ ١٧١).

وكان عطاء بن أبي رباح بعدما كبر وضعف -وهو أشل أعرج- يقوم إلىٰ الصَّلاة، فيقرأ بمائتي آية من البقرة، وهو قائم ما يزول منه شيء ولا يتحرَّك[١].

وكان مسلمة بن بشار يصلي في المسجد فانهدم طائفة منه، فقام الناس وهو في الصلاة لم يشعر[٢].

وروي عن الأوزاعيِّ: أنَّه كان في الصَّلاة كأنَّه أعمىٰ من الخشوع[٣].

وكان أبو حنيفة يُسمَّىٰ الوتد لكثرة صلاته وطول قيامه وخشوعه[٤].

وكان مسلم بن يسار يصلِّي يومًا في جامع البصرة، فسقطت ناحيةٌ من المسجد فاجتمع الناس لذلك، فلم يشعر بذلك حتىٰ انصرف من صلاته[٥].

وهذا في سيرهم كثير شهير، وما هذا إلَّا قليل منه.

ب - البكاء من خشية الله

ومن شدة خشوع السَّلف، وتعظيمهم لله تعالىٰ في صلواتهم كثرة بكائهم فيها، وانهمار عبراتهم في ظلمات الليل قائمين وراكعين وساجدين، يقول عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ واصفًا لهم: «والله، لقد رأيتُ أصحاب محمَّد ﷺ فما أرىٰ اليوم شيئًا يشبههم، ولقد كانوا يصبحون شُعثًا صُفرًا غُبرًا، بين أعينهم أمثال رُكَب المِعزىٰ، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله -عزَّ وجلَّ- يُراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزَّ وجلَّ، مادوا كما يميد الشجر في يوم الرِّيح، وهملت أعينهم حتىٰ تبل ثيابَهم، والله لكأنَّ القوم باتوا غافلين»[٦].

ولعل من أشهرهم بهذا الوصف أبو بكر الصِّديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كان أرقَّ الصَّحابة قلبًا وأكثرهم خشيةً وبكاءً، تقول ابنته أمُّ المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: لَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، أَتَاهُ بِلاَلٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاَةِ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاس**». قُلْتُ: إِنَّ أَبَا

(١) المعرفة للفسوي (١/ ٧٠٣).
(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٣٥٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٨).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٤٠٠).
(٥) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٥١).
(٦) الرقة والبكاء لابن قدامة (٥١).

بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ[١]، إِنْ يَقُمْ مَقَامَكَ يَبْكِ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ الْقِرَاءَةِ. قال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالناس...**»، الخ الحديث[٢].

وكان عمر يبكي من خشية الله في الصلاة حتىٰ يُسمع نشيجُ صوته من أواخر الصفوف[٣]، وكان في خدَّيه خطَّان أسودان من البكاء[٤]. وكان ربما يمرّ بالآية فتخنقه العبرة، فيبكي حتىٰ يسقط، ثم يلزم بيته، حتىٰ يُعاد، فيحسبونه مريضًا[٥].

ومثله في ذلك: حبر الأُمّة عبد الله بن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، يقول عنه تلميذه أبو رجاء: كان هذا المكان من ابن عبّاس مجرىٰ الدُّموع مثل الشِّراك البالي من الدُّموع[٦].

وممَّن كان سخين العين غزير الدَّمع من خشية الله خاصّة في الصَّلاة: خامس الخلفاء الرَّاشدين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ. روىٰ ابن أبي الدُّنيا بسنده إلىٰ أدهم بن زكريا القرشيّ، قال: أخبرني شيخٌ من أهل خراسان، قال: لما أراد أبو جعفر (المنصور) بيتَ المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز إذا أراد بيتَ المقدس، فقال: يا راهبُ، أخبرني بأعجب شيء رأيتَه من عمر بن عبد العزيز، قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينا عمرُ عندي ذات ليلة علىٰ سطح غرفتي هذه وهو من رخام، وأنا مستلق علىٰ قفاي، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب علىٰ صدري، فقلتُ: والله ما عندي ماء، ولا رشَّت السَّماء مطرا، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب، وحين حجَّ صلَّىٰ خلف المقام، فلما رفع رأسه من السُّجود نظروا إلىٰ موضع سجوده مبتلًا من دموع عينيه[٧].

يقول عبد الرحمن بن مهدي: ما عاشرتُ في النَّاس رجلًا أرقَّ من سفيان -يعني الثَّوريَّ-، وكان البكاء يمنعه من القراءة، حتىٰ إن كنتُ لا أستطيع سماعَ قراءته من كثرة بكائه[٨].

---

(١) تعنى: رقيق المشاعر سريع البكاء (لسان العرب: أسف، ٩/ ٥).
(٢) متفق عليه؛ صحيح البخاري (٧١٢) واللفظ له، وصحيح مسلم (٩٤١).
(٣) الطبقات لابن سعد (٦/ ١٢٦).
(٤) الزهد للإمام أحمد (١٥٠)، والرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١٥٩).
(٥) المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ٩٥).
(٦) المصدر نفسه (٨/ ٢٩٧).
(٧) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (١١٧، ١١٨).
(٨) صفة الصفوة (٢/ ٨٦).

وكثير من هؤلاء البكائين غلبتهم الخشية، فأكثروا البكاء حتىٰ مرضت عيونهم، بل إنَّ بعضهم عمي من ذلك، ومنهم الإمام ثابت البُناني، فإنَّه اشتكىٰ عينَه، فقال له الطبيب: اضمن لي خصلةً تبرأ عينُك، قال: وما هي؟ قال: لا تبكِ، قال: وما خيرٌ في عين لا تبكي[١].

واشتهر بهذا كذلك الإمام الأوزاعيُّ، وكانت أمُّه تدخل منزلَه وتتفقد موضعَ مصلاه، فتجده رطبًا من دموعه في اللَّيل[٢].

وفي كتاب (الرِّقَّة والبكاء) لابن أبى الدُّنيا ولابن قدامة من أخبار البكَّائين من الصَّحابة والتَّابعين والصَّالحين ما لا يسعه المقام هنا، ويكفينا نحن في كلٍّ منحًىٰ من مناحى التَّعظيم الإلماع إلىٰ بعض أمثلته من حياة السَّلف الصَّالح وأخبارهم، نبلغ به ما نقصده من بيان ما كان عليه أولئك الصَّفوة الأخيار من تعظيم الله تعالىٰ وإجلاله.

ج- لزوم الصمت وطول الفكرة

وكان من هدي السَّلف لكمال خشيتهم وصدق خشوعهم وتعظيمهم لربّهم: لزوم الصَّمت، وخزن اللِّسان، فلا يتكلَّمون إلَّا بالحقّ وفي الحقِّ، مع طول التَّفكُّر والنَّظر والتَّدبُّر، يقول ابن عبَّاس في وصفهم مخاطبًا بعضَ أهل المِراء والجدل: «أما علمتم أنَّ لله عبادًا أصمتتهم خشيةُ الله تعالىٰ من غير عِيٍّ ولا بكم، وإنّهم لهم العلماء العصماء النُّبلاء الطُّلَقاء، غير أنّهم إذا تذكَّروا عظمة الله تعالىٰ انكسرت قلوبُهم، وانقطعت ألسنتُهم حتىٰ إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلىٰ الله بالأعمال الزَّاكية، فأين أنتم منهم؟».

ولابن أبى الدنيا كتابٌ حافلٌ بقصصهم في هذا الباب سمَّاه كتاب الصَّمت[٣]. وهو مليء بأخبارهم العجيبة في لزومهم الصَّمت إلَّا من خير تعظيمًا لله تعالىٰ.

فعن زيد بن أسلم عن أبيه: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل علىٰ أبي بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يجبذ لسانَه، فقال له عمر: مَهْ، غفر الله لك. فقال أبو بكر: إنَّ هذا أوردني الموارد[٤].

---

(١) المصدر نفسه (١٥٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٨).

(٣) له عِدّة طبعات، من أجودها طبعة دار الكتاب العربي بتحقيق الشَّيخ أبي إسحاق الحويني، الطبعة الأولىٰ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(٤) أخرجه مالكٌ (١٧٨٨).

أبو بكر يقول هذا وهو من هو فضلًا وفضيلةً ومنقبةً، رضي الله عنه وأرضاه.

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهىٰ عن كثرة الكلام، ويقول: «من كَثُر كلامُه كَثُر سقطُه، ومن كَثُر سقطُه قلَّ حياؤُه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعُه، ومن قلَّ ورعُه مات قلبُه»[١].

وأُثِرَ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا قولُه: «والذي لا إله غيره ما علىٰ الأرض شيءٌ أفقر - وفي رواية: أحوج - إلىٰ طول سجن من لسان»[٢].

ومن كلام مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «لو كُلِّف النَّاس الصُّحف لأقلُّوا الكلام»، أي: لو كُلِّفوا شراء ما يُكتب فيه كلامهم لقلَّ كلامهم[٣].

وعن خلف بن تميم، قال: حدَّثنا أبو إسحاق الفزاريُّ، قال: كان إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ يطيل السُّكوت، فإذا تكلَّم ربما انبسط، قال: فأطال ذات يوم السُّكوت، فقلتُ: لو تكلَّمت، فقال: «الكلام علىٰ أربعة وجوه: فمن الكلام كلام ترجو منفعته وتخشىٰ عاقبته، والفضلُ في هذا السَّلامة منه. ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته ولا تخشىٰ عاقبته، فأقِلَّ ما لك في تركه خِفّة المؤنة علىٰ بدنك ولسانك. ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته، ولا تأمن عاقبته، فهذا قد كفىٰ العاقلُ مؤنته. ومن الكلام كلامٌ ترجو منفعته وتأمن عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره.

قال خلف: فقلت لأبي إسحاق: أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام، قال: نعم[٤].

هكذا كان هديهم رحمهم الله، يُقِلّون الكلام، ويُكثرون الفِكرة لتحصيل العِبرة. قال بشر الحافي: «لو فكَّر النَّاس في عظمة الله ما عَصَوه[٥].

قال ابن القيم: وأعلىٰ الفكر وأجلّها وأنفعها: ما كان لله والدّار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها، وفهمها وفهم مراده منها. الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها علىٰ أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبره وجوده. الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه علىٰ خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته

---

(١) شعب الإيمان (٤٩٩٤).
(٢) كتاب الصمت لابن أبي الدنيا (٥٣).
(٣) المصدر نفسه (٦٦).
(٤) المصدر نفسه (٦٧).
(٥) مفتاح السعادة (١/ ١٨٠).

وحلمه. وهذه الأنواع الثلاثة تُستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه. ودوام الفكرة في ذلك مع الذِّكر يصبغ القلبَ في المعرفة والمحبة صبغةً تامَّةً. الرَّابع: الفكرة في عيوب النَّفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النَّفع، وهذا بابٌ لكلِّ خير، وتأثيرها في كسر النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ومتىٰ كُسِرت عاشت النَّفس المطمئنة، وانبعثت وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت كلمته في مملكته، وبثّ أمراءه وجنوده في مصالحه. الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهمّ كلِّه عليه»[(١)].

وممَّن كان علىٰ هذا الوصف من دوام الفكرة: عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دخل ضرار بن ضَمرة الكناني علىٰ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: صِفْ لي عليًّا، فكان ممَّا قال في وصفه: «يستوحش من الدُّنيا وزهرتها، ويستأنس باللّيل وظلمته، وكان والله غزير العبرة، طويل الفِكرة، يقلِّب كفَّه، ويخاطب نفسَه»[(٢)].

وكان عمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قليل الكلام، طويل السُّكوت، وكان عامّة قوله: «عائذ بالرَّحمن من فتنة»[(٣)].

د - كثرة قراءة القرآن الكريم وملازمة الذكر

كان هديهم -رضوان الله عليهم- الاشتغال بأمر الآخرة، وملازمة ذكر الله تعالىٰ وقراءة القرآن الكريم، قال قبيصة بن جابر (٦٩هـ) في وصف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيتُ أحدًا كان أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه في دين الله، ولا أعلم بالله من عمر»[(٤)].

وقال عبد الله بن مسعود: ما أظنَّ أهلَ بيت من المسلمين لم يدخل عليهم حزنُ عمر يوم أصيب عمر، إلَّا أهل بيت سُوء، إنَّ عمر كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا في دين الله[(٥)].

وحكىٰ الإمام النَّوويُّ عن السَّلف العجائبَ في كثرة قراءتهم للقرآن الكريم، وشغلهم أنفسهم بمصاحفهم، وكثرة ختمهم له قراءةً وتدبرًا، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم عادات

---

(١) الجواب الكافي عن الدواء الشافي (١٥٦).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٨٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٤).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٦٥٠).
(٥) المصدر نفسه (٣٢٦٥١).

مختلفة في قدر ما يختمون فيه، فروىٰ ابن أبي داود[١] عن بعض السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنَّهم كانوا يختمون في كلّ شهرين ختمة واحدة، وعن بعضهم في كلّ شهر ختمة، وعن بعضهم في كلّ عشر ليال ختمة، وعن بعضهم في كلّ ثمان ليال، وعن الأكثرين في كلّ سبع ليال، وعن بعضهم في كلِّ ستٍّ، وعن بعضهم في كلِّ خمس، وعن بعضهم في كلِّ أربع، وعن كثيرين في كلِّ ثلاث، وعن بعضهم في كلِّ ليلتين، وختم بعضهم في كلِّ يوم وليلة ختمة، ومنهم مَن كان يختم في كلّ يوم وليلة ختمتين، ومنهم من كان يختم ثلاثًا، وختم بعضهم ثمان ختمات: أربعًا باللَّيل وأربعًا بالنَّهار. فمن الذين كانوا يختمون ختمةً في اللّيل واليوم: عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتميم الدَّاريّ وسعيد بن جُبير ومجاهد والشَّافعي وآخرون، ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات: سليم بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاضي مصر في خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأمّا الذي يختم في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان بن عفَّان وتميم الدَّاري وسعيد بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ختمه في كلّ ركعة في الكعبة. وأما الذين ختموا في الأسبوع مرّة فكثيرون، نُقل عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعن جماعة من التَّابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم رحمهم الله[٢].

وحين حضرت الوفاة أبا بكر شعبة بن عيّاش الكوفي بكت أختُه، فقال لها: ما يبكيك؟! اُنظري إلىٰ تلك الزَّاوية؛ فقد ختمتُ فيها ثمان عشرة ألف ختمة[٣].

وكان لهم مع ذكر الله المهيع الكريم نفسه، فكانت ألسنتهم دائمة الذِّكر لله علىٰ كلّ أحوالهم، حُكى عن خالد بن مَعدان أنّه يُسبِّح في اليوم أربعين ألف تسبيحةٍ سوىٰ ما يُقرأ من القرآن، فلمَّا مات، فوُضِع علىٰ سريره ليغسل، جعل بأُصبعه كذا يحرِّكها -يعنى: بالتَّسبيح-[٤].

وأتىٰ رجلٌ أبا مسلم الخولانيَّ، فقال له: أوصنى يا أبا مسلم، قال: اُذكر الله تعالىٰ تحت كلِّ شجرة ومِدرة، فقال: زِدني، فقال: اُذكر الله تعالىٰ حتىٰ يحسبك النَّاسُ مجنونًا.

وكان أبو مسلم يُكثر ذكر الله تعالىٰ، فرآه رجلٌ وهو يذكر الله تعالىٰ فقال: أمجنون صاحبكم هذا؟ فسمعه أبو مسلم، فقال: ليس هذا بالجنون يا ابن أخي، ولكن هذا دواء الجنون[٥].

---

(١) يعني صاحب كتاب المصاحف، وهو كتاب مشهور متداول.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (٥٩-٦١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٠٤).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٥٤٠).
(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب (٧٠).

هـ - كثرة العبادة واستقلالها

ولهم مع ذلك إكثار من العبادات الأخرىٰ قولية كانت أو فعلية، قال مجاهد بن جبر: ما كان بابٌ من العبادة يعجز عنه النَّاس إلَّا تكلَّفه عبد الله بن الزبير، ولقد جاء سيلٌ طبق البيت، فطاف سباحةً[١].

وكان كان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة، ويصوم حتىٰ يخضَّر ويصفَّر، فلما احتُضِر بكىٰ، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: ما لي لا أجزع، والله لو أُتيتُ بالمغفرة من الله لأهمَّني الحياءُ منه ممَّا صنعتُ، إنَّ الرَّجل ليكون بينه وبين آخر الذَّنب الصَّغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيًا منه[٢].

لقد ملأت العبادة عليهم أوقاتهم فلا يضيعونها في غير قربة إلىٰ ربهم تبارك وتعالىٰ، حتىٰ إنّهم لا يجدون في أوقاتهم فراغًا للزِّيادة، يقول أنسُ بن عياض: رأيتُ صفوان بن سُلَيْم، ولو قيل له: غدًا القيامة، ما كان عنده مزيدٌ علىٰ ما هو عليه من العبادة[٣].

وقال عبد الرَّحمن بن مهدي: لو قيل لحَمَّاد بن سلمة: إنَّك تموت غدًا، ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا[٤].

وقال بُكير بن عامر: كان لو قيل لعبد الرحمن بن أبي نُعم قد توجّه إليك ملكُ الموت ما كان عنده زيادةُ عمل[٥].

وكان هنادُ بن السَّري رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرَ البكاء، فرغ يومًا من القراءة، فتوضأ وجاء إلىٰ المسجد، فصلّىٰ إلىٰ الزوال، ثمّ رجع إلىٰ منزله فتوضأ، وجاء فصلّىٰ بتلاميذه الظُّهر، ثمّ قام علىٰ رجليه يُصلِّي إلىٰ العصر، يرفع صوتَه بالقرآن، ويبكي كثيرًا، ثمّ إنَّه صلَّىٰ بتلاميذه العصر، وأخذ يقرأ في المصحف، حتىٰ صلَّىٰ المغرب. فقيل لبعض جيرانه: ما أصبره علىٰ العبادة، فقال: هذه عبادته بالنَّهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيتَ عبادته باللَّيل، وما تزوّج قط، ولا تسرَّىٰ، وكان يُقال له: راهب الكوفة[٦].

وأخبارهم في هذا الباب غزيرة وفيرة، سجلتها كتب السير والتراجم بمداد الانبهار والدهشة.

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٣٧٠).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٥٢).
(٣) حلية الأولياء (٣/ ١٥٩).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٥٠).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٢).
(٦) المصدر نفسه (١١/ ٤٦٦).

المحور الثالث: تعظيمهم لله تعالى عند ورود الأمر والنهي

إنَّ من تجلِّيات تعظيم الله تعالىٰ عند سلفنا الصالح تعظيم أمره ونهيه، والوقوف عند حدوده والمسارعة إلىٰ الاستجابة لدعوته في المنشط والمكره، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾[النور: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد ضرب الصحابة الكرام ومَن بعدهم من السلف الصالحين الأمثال العجيبة في سرعة الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله، والوقوف عند حدوده فيما أحبوا أو كرهوا.

هذا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان شديدًا، فإذا جاء أمر الله صار ألين من الحرير استجابة لله ورسوله.

سأل بلالٌ أسلمَ مولىٰ عمر بن الخطاب، فقال: يا أسلمُ، كيف تجدون عمر؟ فقال: خير النَّاس، إلَّا أنَّه إذا غضب فهو أمر عظيم، فقال بلالٌ: لو كنتُ عنده إذا غضب، قرأتُ عليه القرآن حتىٰ يذهب غضبُه[1].

ومن تعظيمه لأمر الله: ما رواه البخاريُّ من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم عُيينة بن حصن، فنزل علىٰ ابن أخيه الحُرّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدنيهم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان القُرّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عُيينة لابن أخيه: يا ابنَ أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذِن له عمرُ، فلمَّا دخل قال: هِي يا ابنَ الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزلَ، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حتىٰ هَمَّ أن يوقع به، فقال له الحُرُّ: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله تعالىٰ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالىٰ[2].

إنه منهج لاحب كان عليه الصحابة جميعهم إذا ورد أمر الله تعالىٰ أو نهيه، لا يتباطأون في الاستجابة أو يضربون لها الأمثال استخفافا وتملصا من التكليف، بل يقولون سمعنا وأطعنا تعظيما لله تعالىٰ ولأمره.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٦٤٢).

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب. قال أنس: فلمّا أُنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيرُحاء، وإنّها صدقة لله أرجو برَّها وذخرَها عند الله، فضعها يا رسول الله حيثُ أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**بَخٍ ذلك مالٌ رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنِّي أرىٰ أن تجعلها في الأقربين**». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[(١)].

ولمَّا نزلت: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[الحديد: ١١]، قال أبو الدَّحداح الأنصاريُّ: يا رسول الله، وإنَّ الله ليريد منَّا القرض؟ قال: **نعم يا أبا الدَّحداح**. قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فتناول يده، قال: فإنِّي قد أقرضتُ ربِّي حائطي، قال: وحائطه فيه ستُّمائة نخلة، وأمُّ الدَّحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدَّحداح فناداها: يا أمَّ الدَّحداح، فقالت: لبيك، فقال: اُخرجي. فقد أقرضته ربِّي[(٢)].

وكانوا -عليهم الرِّضوان- بالمقابل إذا نُهوا عن شيءٍ بادروا إلىٰ الانتهاء عنه، ولم يعودوا إليه أبدًا، تعظيمًا لصاحب الأمر سبحانه وتعالىٰ، ففي (صحيح مسلم): من حديث عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ خاتمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه، وقال: «**يعمد أحدكم إلىٰ جمرة من نار فيجعلها في يده**»، فقيل للرَّجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله، لا آخذه أبدًا وقد طرحه رسول الله ﷺ[(٣)].

ولم تكن تلك الاستجابة قاصرةً علىٰ الرِّجال وحدهم، بل كان النِّساء والرِّجال في ذلك سواء، فعن صفية بنت شَيبة قالت: بينا نحن عند عائشة، قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلَهن؛ فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّ لنساء قريش لَفضلًا، وإنِّي واللهِ ما رأيتُ أفضلَ من نساء الأنصار، أشدّ تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتَّنزيل، لقد أُنزلت سورة النُّور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور: ٣١]، انقلب إليهنَّ رجالهن يتلون عليهنَّ ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرَّجل علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٩٣).
(٢) أخرجه البيهقيّ في (شعب الإيمان: ٣٤٥٢).
(٣) أخرجه مسلم (٣٨٩٧).

امرأته وابنته وأخته، وعلىٰ كلّ ذي قرابة، فما منهنَّ امرأة إلَّا قامت إلىٰ مِرْطها المُرَحَّل فاعتجرت به -أي: اختمرت بالمرط وهو الكساء-، تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحْنَ وراء رسول الله ﷺ الصّبح معتجرات، كأنَّ علىٰ رؤوسهن الغربان[١]. وقالت أمّ سلمة: لما نزلت: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩]، خرجَ نِسَاءُ الأنصارِ كأن علىٰ رؤوسِهِنَّ الغِرْبانَ مِنَ الأكْسِيَة[٢].

وكما كان جيل الصَّحابة -رضوان الله عليهم- علىٰ هذا الطِّراز الرَّفيع في الاستجابة لله ورسوله تعظيمًا وتوقيرًا، كان جيل التَّابعين وتابعيهم بإحسان من السَّلف الصَّالح، كذلك إذا بلغهم أمر الله وأمر رسوله. هذا الإمام الشَّافعي سأله رجلٌ بمصر عن مسألة فأفتاه، وقال: قال النَّبيُّ كذا، فقال الرَّجل: أتقول بهذا؟ قال: أرأيتَ في وسطي زُنَّارًا، أتراني خرجت من الكنيسة؟! أقول: قال النَّبيُّ ﷺ وتقول لي: أتقول بهذا! أروي عن النَّبيِّ ﷺ ولا أقول به![٣].

قال تلميذه الرَّبيع بن سليمان: سمعتُه يقول: «أيُّ سماء تُظلّني، وأيّ أرض تُقلّني إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثًا فلم أقل به[٤].

وقال أبو ثور: سمعتُه يقول: كلُّ حديث عن النَّبيِّ ﷺ؛ فهو قولي، وإن لم تسمعوه منِّي»[٥]. ويُروىٰ أنَّه قال: إذا صحَّ الحديثُ؛ فهو مذهبي، وإذا صح الحديث؛ فاضربوا بقولي الحائط[٦].

وما أشدّ أسفهم إن تركوا تبليغ أمر الله أو نهيه، وقد رأوا موجب البيان، يقول سفيان الثَّوريُّ: إنّي لأرىٰ الشَّيء يجب عليَّ أن آمر به أو أنهىٰ عنه لا أفعل، فأبول دمًا[٧].

وما أشدّ غضبهم علىٰ من ردّ أمر الله ورسوله، أو ماطل في الاستجابة له، يقول مجاهد بن جبر: قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النَّبيُّ ﷺ: «**ائذنوا للنساء إلىٰ المساجد بالليل**»، فقال ابنٌ له: والله لا نأذن لهنّ فيتَّخِذنه دَغلًا، والله لا نأذنُ لهنّ، قال: فسبَّه وغضب، وقال: أقول قال رسول الله ﷺ: «**ائذنوا لهن**»، وتقول: لا نأذن لهن![٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣) نقلا عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠١).
(٣) حلية الأولياء (٩/ ١٠٦)، ومناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٧٤).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٥).
(٥) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (٧٠).
(٦) السير (١٠/ ٣٥).
(٧) شعب الإيمان (٩٤٩).
(٨) أخرجه أبو داود (٥٦٨).

المحور الرابع: تعظيمهم لله تعالى بتعظيم شعائره وحدوده وحرماته وأوليائه

أ- تعظيم شعائر الله

من أعظم مظاهر تعظيم الله تعالىٰ تعظيم شعائره وعباداته الظاهرة، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحج].

وتنوَّعت كلمة المفسرين في المراد بشعائر الله هنا المطلوب تعظيمها، وأحسن مَن أجمل المراد بها الإمام الطَّبري حيثُ قال: «وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصَّواب أن يقال: إنَّ الله -تعالىٰ ذكره- أخبر أنَّ تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلامًا لخلقه فيما تعبَّدهم به من مناسك حجِّهم، من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها، والأعمال التي ألزمهم عملها في حجِّهم: من تقوىٰ قلوبهم، لم يخصِّص من ذلك شيئًا، فتعظيم كلِّ ذلك من تقوىٰ القلوب كما قال جلَّ ثناؤه، وحُقَّ علىٰ عباده المؤمنين به تعظيمُ جميع ذلك»[(١)].

لذا؛ كان للسَّلف الصالح عناية كبرىٰ بالحجّ والعمرة إلىٰ بيت الله الحرام، يستكثرون من ذلك تعظيمًا لله ولبيته الحرام، وما فيه من شعائر الله. فقد رُوي عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه حجَّ ستِّين حجَّة، واعتمر زُهاء ألف عمرة[(٢)]. وحجّ عطاء بن أبي رباح زيادة علىٰ سبعين حجَّة[(٣)]، وحجَّ سعيد بن المسيب وطاوس بن كَيسان وأيوب السَّختياني وجماعة أربعين حجّة[(٤)]. وكان عبد الله ابن المبارك يحجّ عامًا ويغزو عامًا، لا يمرّ بمدينة إلَّا قال لمشيختها من أهل العلم والإقلال: ليخرج مَعي مَن أراد الحجّ، نكفيهم مؤونتهم، ويفعل مثل ذلك إذا غزا[(٥)].

لكن شعائر الله المندوب إلىٰ تعظيمها في الآية المتقدمة أعمّ من أن تُقصر علىٰ ما يرتبط بالحجّ والبلد الحرام فحسب، بل هي عامّة تشمل كلّ ما جعله الله علامةً علىٰ طاعته، قال الفخر الرَّازيُّ: «وأمّا شعائر الله؛ فهي أعلام طاعته، وكلّ شيء جُعِل علمًا من أعلام طاعة الله؛ فهو من شعائر الله»[(٦)].

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٦٢٢).
(٢) العقد الثمين (٤/ ٣٩٠) وشذرات الذهب (١/ ٧٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٢).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٢٢٢، ٥/ ٤٥، ٦/ ٢١).
(٥) ترتيب المدارك (٣/ ٤١).
(٦) مفاتيح الغيب (٤/ ١٣٥).

ومن أعظم شعائر الله: الصَّلوات المكتوبات، التي جعل شعارها التَّكبير، به تفتتح، وبه ينتقل في أعمالها. وفيها الرُّكوع والسُّجود لله وهما أرفع صور التَّعظيم له، وفيها رفع اليدين بالإشارة مع التَّكبير، مع تعظيم الله تعالىٰ بالذِّكر في الرُّكوع والسُّجود، كلّ ذلك يجعل من الصَّلاة قِمَّةَ ما تصل إليه أعمال العبد الظَّاهرة من تحقيق التعظيم لله تعالىٰ.

لذا؛ كان السَّلف يولون الصَّلاة عنايةً لا تصلها فيها عبادة أخرىٰ، ومنهم سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحرص علىٰ أدائها في وقتها وهو مطعون مشرف علىٰ الموت، فعن المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلتُ أنا وابن عبَّاس علىٰ عمر بعد ما طُعِن، وقد أغمي عليه، فقلنا: لا ينتبه لشيء أفزع له من الصَّلاة، فقلنا: الصَّلاة يا أمير المؤمنين، فانتبه، وقال: لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصَّلاة، فصلَّىٰ وجرحه يثعب دمًا[١].

وكان عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا حضرت الصَّلاة يتزلزل ويتلوَّن وجهه، فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: جاء وقت أمانة عَرَضها الله علىٰ السَّموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملتها[٢].

وعلىٰ سَنَنه كان حفيده عليُّ بن الحسين، فكان إذا توضأ اصفَّر لونُه، فيقول له أهلُه: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم[٣].

ب - تعظيم حدود الله ومحارمه

ومن تعظيم الله تعالىٰ تعظيمُ حدوده فلا تتعدىٰ، وتعظيم حرماته فلا تُنتهك، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[الحج: ٣٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قال جماعة من المفسرين: حرمات الله ههنا مغاضِبُه وما نهىٰ عنه، وتعظيمها ترك ملابستها. وقال قومٌ: الحرمات هي الأمر والنهي. وقال قومٌ: الحرمات ههنا المناسك ومشاعر الحجّ. والصَّواب أنَّ الحُرمات تعمّ هذا كلّه، وهي ما يجب احترامه وحفظه، من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها توفيتها حقَّها وحفظها من الإضاعة»[٤].

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٨٩٢).
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٥١).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٧٣).

ولا شكَّ أن تعدي حدود الله ومعصيته والوقوع في محارمه ممّا يضعف تعظيمه، بل هو أثرُ عدم تعظيمه، وهو مراتب، فمن المعاصي ما ينافي أصل التَّعظيم كالشِّرك والكفر، ومنها ما ينافي كماله كما دون ذلك من الذُّنوب.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن عقوبات الذُّنوب أنّها تضعف في القلب تعظيم الرَّبِّ جلَّ جلاله، وتضعِف وقارَه في قلب العبد ولا بدّ، شاء أم أبىٰ، ولو تمكَّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرَّأ علىٰ معاصيه. فإنَّ عظمة الله تعالىٰ وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب[١].

قال بشر بن الحارث الحافي: «لو تفكَّر النَّاس في عظمة الله تعالىٰ لما عصوه»[٢].

لذا؛ كان السَّلف -رحمهم الله- أحرص النَّاس علىٰ اجتناب المعاصي واجتناب المحارم، خاصّة ذنوب الخلوات، التي ذمَّ الله أصحابها، فقال: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[النساء].

قال عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في صفة هؤلاء: «من صلَّىٰ صلاة عند الناس لا يصلِّي مثلَها إذا خلا، ولا يستحيي أن يكون النَّاس أعظم عنده من الله، فهي استهانة استهان بها ربُّه»[٣].

قال بلالُ بن سعدٍ: «لا تنظُرْ إلىٰ صِغَرِ الخطيئةِ، ولكن انظُر مَن عصَيْتَ»[٤].

ومصداق ذلك قولُ عبدِ الله بن مسعودٍ: «إنَّ المؤمنَ يرىٰ ذنوبَه كأنَّه قاعدٌ تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرىٰ ذنوبَه كذُبابٍ مرَّ علىٰ أنفِه، فقال به هكذا»[٥].

وكان أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول واصفًا حال الصَّحابة في تعظيم شأن الذُّنوب: «إنَّكم لَتعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعَر، إن كُنَّا لنعُدُّها علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ من الموبِقات»[٦].

---

(١) الداء والدواء (١٧٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).
(٣) الدر المنثور في التفسير بالمنثور (٢/ ٣٨٧)، وعزاه لتفسير ابن أبي حاتم.
(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (٣١١)، والزهد لابن المبارك (٧١).
(٥) أخرجه البخاريّ (٥٩٤٩).
(٦) أخرجه البخاري (٦١٢٧).

وركب محمَّدَ بنَ سيرين دَيْنٌ حتىٰ اغتمَّ له، فقال: «إنّي لأعرف هذا الغمَّ بذنبٍ أصبتُه منذ أربعين سنةً»[١].

وقال الفضيل بن عياضٍ: «إنِّي لأعصي الله فأعرِفُ ذلك في خُلق دابَّتي وجاريتي»[٢].

وممَّا يتجلَّىٰ فيه تعظيم السَّلف لمحارم الله: ورعُهم الشَّديد بتَرك كثير من المباح خوفًا من الوقوع في محارم الله، فكانوا يتركون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام، ويتركون ما لا بأس به خوفًا ممّا به بأس، ويدعون ما يريب إلىٰ ما لا يريب.

قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تمام التقوىٰ أن يتقي الله العبدَ، حتَّىٰ يتقيه من مثقال ذرَّة، وحتىٰ يترك بعضَ ما يرىٰ أنَّه حلالٌ خشيةَ أن يكون حرامًا، حجابًا بينه وبين الحرام»[٣].

لقد صاروا بهذا الورع، كما قال عنهم الحسنُ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما زالتِ التَّقوىٰ بالمتقين؛ حتىٰ تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام»[٤].

وقصصهم في ذلك عجيبة أعجزت من جاء بعدهم. وقد اشتملت كتبُ الورع والزُّهد[٥] علىٰ غرائب منها، كاد هؤلاء الصَّفوة أن يخرجوا بها عن حدِّ البشرية إلىٰ الملائكية.

روت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ أبا بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له غلامٌ يُخرج له الخراجَ -أي: عبد يأتيه بجزء من كسبه-، وكان أبو بكر يأكل من خَراجه، فجاء يومًا بشيءٍ فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنتُ لإنسانٍ في الجاهلية، وما أُحسِن الكهانة إلَّا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كلَّ شيءٍ في بطنه[٦].

وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقدم عليه مسكٌ وعنبرٌ من البحرين، فيقول: والله لوددتُ أنِّى أجد امرأةً حسنةً تزن لي هذا الطِّيب؛ حتىٰ أفرِّقه بين المسلمين. فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٢٧١).

(٢) ذم الهوىٰ لابن الجوزي ص١٨٥.

(٣) الزهد لابن المبارك ص١٩.

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٧٤.

(٥) ومن أشهرها ممّا هو مطبوع متداول: كتاب الورع وكتاب الزهد كلاهما لابن أبي الدنيا، وكتاب الزهد للإمام أحمد، ولابن المبارك، ولهناد بن السّري، وكتاب الزهد والرقائق للخطيب البغدادي، والزهد لوكيع بن الجراح، والزهد الكبير للبيهقي، والزهد لابن أبي حاتم، وغيرها كثير.

(٦) أخرجه البخاريّ (٣٦٢٩).

بن نفيل: أنا جيّدة الوزن، فهلمَّ أزن لك، قال: لا، قالت: ولم؟ قال: إنِّى أخشىٰ أن تأخذيه هكذا -وأدخل أصابعه في صدغيه - وتمسحين عنقك، فأُصيب فضلًا عن المسلمين[١].

إنَّه مسلَك عمريٌّ في الورع لا غرابة أن يُحييه سليلُه عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خلافته، مذكِّرًا بسيرة جدِّه عمر بن الخطاب، فقد رُوي أنَّه أُتي أيضا بغنائم مسك؛ فأخذ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين: تأخذ بأنفك لهذا؟ قال: إنّما ينتفع من هذا بريحه؛ فأكره أن أجد ريحَه دون المسلمين[٢].

وعليه كان أيضًا عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومن قصصه في ذلك: ما رواه عنه نافعٌ مولاه أنَّه سمع مِزمارًا، فوضع أصبعيه علىٰ أذنيه ونأىٰ عن الطريق، وقال لنافع: يا نافعُ، هل تسمع شيئًا؟ قال: فقلتُ لا، قال فرفع أصبعيه من أذنيه، وقال: كنتُ مع النَّبىِّ ﷺ فسمع مثل هذا، فصنع مثل هذا[٣].

قال طاووسٌ: ما رأيتُ أورع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عبَّاس[٤].

وعلىٰ نهج جيل الصَّحابة الكرام في هذا الباب، كان المتقدمون من علماء السَّلف، وفي سيرهم من أخبارهم التى تُجلِّى ذلك ما تتحلَّىٰ به الطُّروس، وتنشرح بقراءته الصُّدُور، وتُضرَب به الأمثال.

ونكتفى علىٰ سبيل التَّمثيل بأحد أعلامهم في ذلك، وهو الإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن نماذج ورعه: ما حكاه الحسنُ بن عرفة، قال: قال لى ابن المبارك : استعرتُ قلمًا بأرض الشَّام، فذهبتُ علىٰ أن أردَّه، فلمّا قدمتُ مرو نظرتُ فإذا هو معى، فرجعتُ إلىٰ الشَّام؛ حتىٰ ردَّدتُه علىٰ صاحبه[٥].

ولما احتُضِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في السَّفر، فقال: أشتهى سَويقًا، فلم يجدوه إلَّا عند رجل كان يعمل للسلطان، وكان معهم في السَّفينة، فذكروا ذلك لعبد الله، فقال: دعوه. فمات ولم يشربه[٦].

---

(١) الورع للإمام أحمد رواية المروزي ص٤٥.
(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص٧٤.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٢٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٢).
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٠/ ١٦٧).
(٦) السير (٨/ ٤١١).

ولو جئنا نحاول تتبع مظاهر الورع في حياة السَّلف لطال بنا الحديث وامتد، ولكن في القليل الذي أوردناه دليلٌ علىٰ الكثير الطّيب الذي دوَّنته عنهم كتبُ الزُّهد والورع، ودواوين التّراجم والطبقات، وهو كلّه دليلُ تعظيمهم لله تعظيمًا جعلهم يتجنبون الحرام والشُّبهات، بل وبعض المباح طلبًا لرضا الله تعالىٰ، وحرصًا علىٰ السَّلامة في الدِّين.

ج - تعظيم أوليائه

وعلىٰ رأسهم الرُّسل الكرام، وإمامهم نبيّنا محمّد ﷺ، ثمّ آل بيته وزوجاته وأصحابه الكرام، والصَّالحون من العلماء والعُبَّاد وحملة القرآن الكريم. فإنَّ من تعظيم الله تعالىٰ حبّ أوليائه وتعظيم أقدارهم. وقد كان الصَّحابة -رضوان الله عليهم- مضرب الأمثال في حبّ النَّبيِّ ﷺ وتعظيم قدره، حتىٰ قال عروة بن مسعود الثَّقفيُّ يوم الحديبية -وكان لم يسلم بعد-: «والله لقد وفدت علىٰ الملوك، ووفدت علىٰ قيصر وكسرىٰ والنَّجاشي، والله إنْ رأيت ملِكًا قَطُّ يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّم أصحابُ محمّدٍ محمّدًا، والله إن تنخم نخامة إلَّا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون إليه النَّظر تعظيمًا له»[1].

وقصصهم في هذا كثيرة وفيرة.

وكان السَّلف الصَّالح من أهل القرون المفضلة علىٰ هذا المنهج في تعظيم قدر الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتوقير آل بيته وأصحابه وصالحي الأمَّة.

هذا الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من تعظيمه لرسول الله ﷺ لا يحدِّث بحديث عن رسول الله ﷺ إلَّا إذا تطيّب وتَطَهَّر إجلالًا له. قال عنه عبد الله بن المبارك: كنتُ عند مالك وهو يحدِّثنا، فلدغته عقربٌ ستَّةَ عشرَ مرَّة، ومالكٌ يتغيَّر لونُه ويصبر، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس وتفرَّق الناس، قلتُ: يا أبا عبد الله، لقد رأيتُ منك اليوم عجبًا، قال: إنّما صبرت إجلالًا لحديث رسول الله ﷺ.

قال يحيىٰ بن يحيىٰ الأندلسي: كنتُ جالسًا عند مالك، فوقعت علىٰ رأسه وزغتان، فمرَّتا علىٰ قلنسوته، ثمّ دنتا إلىٰ عُنقه حتّىٰ دخلتا تحت طوقه حتىٰ خرجتا من تحت ثيابه، وما نفضهما وما حلّ صفوته[2].

---

(١) أخرجه البخاريّ (٥٢٨٣).

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ١٦).

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالكٌ إذا ذكر النَّبيَّ ﷺ عنده تغيَّر لونُه وانحنىٰ حتىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائه. فقيل له يومًا في ذلك؛ فقال: لو رأيتم لما أنكرتم عليَّ ما ترون، كنت آتي محمَّد بن المنكدر، وكان سيّد القُرَّاء، لا نكاد نسأله علىٰ حديث إلَّا بكىٰ حتىٰ نرحمه، ولقد أتىٰ جعفر بن محمد وكان كثير المزاح والتَّبسم، فإذا ذُكِر عنده النَّبيُّ ﷺ اخضَّر واصفَّر[١].

وهذا الإمام أيوب السَّختياني سُئل عنه مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: حجَّ حجَّتين، فكنتُ أرمقه ولا أسمع منه، غير أنَّه كان إذا ذكر النَّبيَّ ﷺ بكىٰ حتىٰ أرحمه، فلمّا رأيتُ منه ما رأيتُ كتبتُ عنه[٢].

وقال مالك: كنتُ أرىٰ جعفر بن محمد الصَّادق، وكان كثير الدُّعابة والتَّبسم، فإذا ذُكر عنده النَّبيُّ ﷺ اصفَّر، وما رأيتُه يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلَّا علىٰ طهارة، قال: ولقد رأيتُ عبد الرحمن بن القاسم يذكر النَّبيَّ ﷺ فينظر إلىٰ لونه كأنَّه نزف منه الدَّمّ، وقد جفَّ لسانه في فمه هيبةً منه لرسول الله ﷺ.

وقال: ولقد رأيتُ الزُّهريَّ وكان من أهنئ الناس وأقربهم، فإذا ذُكر عنده النَّبيُّ ﷺ فكأنه ما عرفك، ولا عرفته[٣].

ومن تعظيمهم لقدر صحابة رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عن أصحابه- ما روي عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قيل له: معاويةُ خيرٌ أو عمرُ بن عبد العزيز؟ فقال: ترابٌ دخل في أنف معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ خيرٌ وأفضلُ من عمر بن عبد العزيز.

وسئل أبو أسامة حمَّاد بن أسامة: أيّما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: أصحاب رسول الله ﷺ لا يُقاس بهم أحدٌ[٤].

وعن أبي بكر المروذيِّ، قال: قلتُ لأبي عبد الله -يعني الإمام أحمد-: «أيّهما أفضل، معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟، فقال: معاوية أفضل، لسنا نقيس بأصحاب رسول الله ﷺ أحدًا[٥].

---

(١) الشفا (٢/ ٤٢)، وترتيب المدارك(٢/ ٥١-٥٢).
(٢) ترتيب المدارك (١/ ١٣٩).
(٣) الشفا (٢/ ٤٢).
(٤) أخرج هذا الأثر والذي قبله الآجري في (الشّريعة ٣/ ٥٢٠).
(٥) السنة للخلال (٢/ ٤٣٤).

هذا قُلٌّ من كثر من تعظيمهم لرسول الله ﷺ ولأصحابه وللصَّالحين من أمَّته، الذي هو في حقيقته تعظيم لله تعالىٰ بموالاة أوليائه ومحبتهم وتنزيلهم من الإجلال والتوقير والاحترام منازلهم التي أمر الله بإنزالهم فيها.

فرضي الله تعالىٰ عن صحابة رسوله الكرام، ورحم رحمةً واسعةً سلفنا الصالح وأهل القرون الفاضلة والتابعين لهم بإحسان من علماء هذه الأمة وصالحيها، ووفقنا للاقتداء بهديهم في تعظيم ربهم تبارك وتعالىٰ، ونفعنا بمحبتهم، وحشرنا معهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

- تعظيم الله عند السلف منهج حياة شامل، يشمل تعظيم الله في الاعتقاد والسلوك والعمل.
- هو منهج تقرأ فيه أعاجيب الأخبار والقصص التى أعجزت من جاء بعدهم أن يأتوا بمثلها، مما يوضح فضل هذا الجيل الكريم الذي شهد له النبى -ﷺ- بالخيرية.
- جمع أخبار السلف في هذا المجال، وتتبع معالم منهجهم في تعظيم الله تعالىٰ، خطوة أولىٰ لترسم طريقهم في تجسيد هذا التعظيم في حياتنا وواقعنا، متخذين لهذه القمم الباذخة منارات للاهتداء، تشبها بهم وإن كنا لن نبلغ أن نكون مثلهم، فالتشبه بالكرام فلاح كما يقال.
- ترسم السلف الصالح في تعظيمهم لله تعالىٰ سنة سيد المعظمين لربهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في تعظيمه لله تعالىٰ، فلم يزلوا أو ينجروا إلىٰ شذوذات الفرق وأهل الأهواء والنحل الباطلة فيما يبتدعونه في الدين ويزعمونه تعظيما لله تعالىٰ.

ولعل أهم التّوصيات التى أخرج بها من هذا العمل المتواضع: ما أحسست به وأنا أجمع شتاته من المصادر، من كون هذا الجانب ما زال لم يحظ بدراسة شاملة تتبع جوانبه بالجمع والتحليل؛ وهو جانب بالغ الأهمية جدير بأن يقدَّم للأمّة نموذجًا فريدًا للاقتداء والاحتذاء من حياة السَّلف الصَّالح والقرون المفضلة التى شهد له النبىُّ ﷺ بالخيرية، في زمن انمحت فيه الصُّوىٰ، وضل فيه قُطّاع عريض من هذا الجيل، بسبب تضييعه معالم الاقتداء في رجال مِلَّته وأبطال ثقافته وتاريخه، فراح يلتمسها في الشرق والغرب، فخرج مِسخًا فاقدًا للهوية، والشَّخصية الثقافية.

والله المستعان،،

المصادر والمراجع

- المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم.
- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، طبعة دار الكتب العلمية.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، طبعة دار المعرفة.
- الأخبار المروية في سبب وضع العربية لجلال الدين السيوطي، تحقيق مروان العطية، طبعة دار الهجرة – بيروت / دمشق، ط١/ ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- آداب الشافعي ومناقبه لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، كتب كلمة عنه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، قدم له وحقق أصله وعلق عليه: عبد الغني عبد الخالق، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١/ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمتشابهات لمرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١/ ١٤٠٦هـ.
- إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة لأبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ط١/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٢م.
- إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، طبعة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - دمشق ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.
- البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة دار هجر للطباعة والنشر، ط١/ ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
- بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف لابن رجب الحنبلي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، طبعة دار الصميعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط٢/ ٤٠٦هـ.
- البيان والتبيين للجاحظ، طبعة دار ومكتبة الهلال – بيروت.

- تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق الدكتور بشار عوّاد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط١/ ٢٠٠٣م.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، دار القلم – مؤسسة الرسالة – دمشق بيروت، ط٢/ ١٣٩٧هـ.
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل لأبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، طبعة دار الفكر، سنة ١٩٩٥م.
- التبيان في آداب حملة القرآن لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان.
- ترتيب المدارك للقاضي عياض، تحقيق عدة محققين، مطبعة فضالة – المحمدية – المغرب.
- تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، طبعة مكتبة الدار – المدينة المنورة، ط١/ ١٤٠٦هـ.
- تفسير ابن كثير طبعة دار طيبة بتحقيق سامي بن محمد السلامة، ط٢/ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- تفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبعة مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن الكريم) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة مؤسسة الرسالة ـ ط١/ ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
- تهذيب الكمال أبو الحجاج يوسف للمزي، تحقيق د. بشار عواد معروف، طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١/ ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، طبعة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١/ ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان – مكتبة المعارف – الرياض، سنة ١٤٠٣هـ.
- حلية الأولياء دار الكتاب العربي – بيروت، ط٤/ ١٤٠٥هـ.
- الداء والدواء (الجواب الكافي) لابن القيم، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، طبعة دار عالم الفوائد.
- الدر المنثور في التفسير بالمنثور للسيوطي، طبعة دار الفكر – بيروت.
- ذم الهوىٰ لابن الجوزي، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد.
- الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، طبعة دار ابن حزم ـ ط٣/ ١٤١٠هـ-١٩٩٨م.
- الرقة والبكاء لابن قدامة، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، طبعة دار القلم ـ دمشق، والدار الشامية ـ بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
- الزهد لابن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت.
- الزهد للإمام أحمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- السنة للخلال تحقيق د. عطية الزهراني، طبعة دار الراية – الرياض، ط١/ ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية.
- سنن الترمذي تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، طبعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي – مصر، ط٢/ ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
- سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الارنؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة ٩/ ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، تحقيق محمود الأرناؤوط، طبعة دار ابن كثير – دمشق – بيروت، ط١/ ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم لأبي القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق تشأت بن كمال المصري، طبعة دار البصيرة ـ الإسكندرية، ودار الآثار ـ صنعاء، بدون تاريخ.
- الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، نشر دار الوطن – الرياض، ط٢/ ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١/ ١٤١٠.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ للعلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، طبعة دار الفكر، سنة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م.
- الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد الله عمر الحلواني، ومحمد كبير أحمد شودري، دار ابن حزم – بيروت، ط١/ ١٤١٧هـ.
- صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا، طبعة دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣/ ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، نشر دار الجيل ـ بيروت، وطبعتها مصورة من الطبعة التركية المطبوعة سنة ١٣٣٤ هـ.
- صفة الصفوة لأبي زيد عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، تحقيق محمود فاخوري – د. محمد رواس قلعه جي، طبعة دار المعرفة – بيروت، ط٢/ ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- الطبقات الكبرىٰ لمحمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، طبعة دار صادر – بيروت.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٩٩٨م.
- غاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، الناشر: مكتبة ابن تيمية، عني بنشره ج. برجستراسر.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، طبعة دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

- قتلىٰ القرآن لأبي إسحاق الثعالبي، تحقيق د. ناصر بن محمد المنيع، طبعة مكتبة العبيكان ـ الرياض، ط١/ ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.
- كتاب التوابين لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الجماعيلي الشهير بابن قدامة المقدسي، الناشر: دار ابن حزم، ط١/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- كتاب الصمت وآداب اللسان لأبي بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا،
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، طبعة دار صادر – بيروت.
- مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- المحكم في نقط المصاحف لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، تحقيق د. عزة حسن، طبعة دار الفكر – دمشق، ط٢/ ١٤٠٧هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢/ ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣م.
- المستدرك علىٰ الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، ط١/ ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- المُصَنَّف لأبي بكر بن أبي شيبة العبسي الكوفي، تحقيق محمد عوامة، نشر دار القبلة.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامية، ط١/ ١٩٩٣م.
- المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/ ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الناشر دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، ط١/ ١٤٣٢هـ.

- مفردات القرآن الكريم للراغب الأصبهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، طبعة دار القلم ـ الدار الشامية، ط١/ ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
- مناقب الشافعي لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة مكتبة دار التراث – القاهرة، ط١/ ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.
- موضح أوهام الجمع والتفريق للخطيب البغدادي، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ.
- موطأ الإمام مالك، رواية يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – مصر.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم، تحقيق سيد إبراهيم، طبعة دار الحديث – القاهرة، ط٣/ ١٩٩٩م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت.